الفصل العاشر

معوقات البحث

عن الصابئة المندائيين

obeikan.com

obeikan.com

في الحقيقة والواقع من يدخل في مثل هذا النفق التي تعددت مداخله ومخارجه، وضعف النور فيه فأصبح غير واضح المعالم ولا يقودك دليل غير عقلك وضميرك وبعض المصادر المتوفرة المتضاربة بين الإنصاف والإجحاف والاختلاف... فأنت في هذا النفق في تَيهٌ تتوجس الطريق، وأحياناً تقول هذا الطريق الذي يوصلني فتجده مغلقًا، فتغيره باتجاه آخر فتلقى العثرات، فتغير الطريق فتجد التفاهات، فتبدل الطريق فتلقى التطرفات والتشردات واللعنات... تحاول أن توازن الأمور، بين الأولين والمستشرقين والمعاصرين، فيصعب عليك الأمر وتظل في حيرة من أمرك: هل تستمر في هذا الموضوع الشائك الذي لا تجني منه سوى النقد والعتب والمشاكل التي أنت في غنىً عنها؟... فأنا لستُ رجل دين ولستُ فَقيهًا؛ رجل علماني مهني، عمل لمدة عقدين ونصف في مجالس الطائفة في العراق والسويد، واستقى الكثير من المعلومات من رجال الدين ومن المهتمين بالشأن المندائي ومن قراءة المصادر والكتب الدينية، والإطلاع على ما كتبه الأولون والمعاصرون والمستشرقون على اختلاف ثقافاتهم وتوجهاتهم ومذاهبهم وصدقهم وأمانتهم وحياديتهم... ولقد تربيتُ وسط عائلة مندائية لها سعة إطلاع بالدين المندائي، وتثقفتُ في مضائف جديَّ: يوسف سالم بنحيتان ومكلف سوادي. ونقطة التحول الرئيسية يوم نصبت رئيسًا للجنة العليا المشرفة على ترجمة الكتاب المقدس كنزا ربا (الكنز العظيم) وكتاب دراشة أد يهيا يوهانا (تعاليم النبي يحيى بن زكريا) يوحنا المعمدان، وملازمتي للمترجمين الأستاذ الدكتور صبيح مدلول الخميسي والأستاذ الدكتور يوسف متي قوزي والصياغة اللغوية للشاعر المفلق عبد الرزاق عبد الواحد على مدى ثلاث سنوات متتالية، وحضوري كل المناقشات والمحاضرات وإطلاعي على كل شاردة وواردة واحتكاكي بالأساتذة المتخصصين في هذا المجال في العلوم... أكسبني كمًّا من المعلومات وجعل لدي خلفية معلوماتية دونت معظمها للاستفادة منها عند الحاجة.

حقيقة الأمر أنا رجل علم متخصص في هندسة الطيران، سنحت لي الفرصة بعد التقاعد والهجرة القسرية إلى أوروبا للحصول على شهادة الدكتوراة في العلوم السياسية، وتهيأت لي فرصة أخرى للحصول على شهادة الدكتوراة في الدراسات المندائية... وربَّ سائل يسأل : ما علاقة هندسة الطيران بهذه الاختصاصات والدراسات ؟... الهندسة مجال عملي وتخصصي، بينما هذه هوايات لتوسيع دائرة معلوماتي لأني وجدت متسعًا من الوقت عليَّ أن أشغلهُ... وهكذا استثمرت الفرص ودخلت الأبواب التي فُتحت أمامي لأشبع طموحي وأستفيد وأفيد.

وها أنا أُسَخِّرُ ما تعلمتهُ وخزنتُه قدر طاقتى وإمكاناتي لأفيد، وخير الناس من نفع الناس... فأدخلت نفسي في هذا النفق الطويل بإرادتي، وإني أعلم أن الكثيرين يخشون الدخول فيه لحساسيته ولتضارب المعلومات واختلاف وجهات النظر، وتقاطع البحوث والاجتهادات وشحة المصادر وتكرار المعلومات بسبب النقل غير المسؤول ومجافاة الدقة والحيادية والإنصاف لدى الكثيرين بسبب التعصب الديني، أو نقلهم معلومات من غيرهم على علاتها دون تدقيق وتمحيص لتسهيل الأمور عليهم، غير مبالين بالأمانة العلمية والأخلاقية والتاريخية، وغير آبهين بالضرر الذي قد يلحق بالمندائيين جرَّاء هذا التقييم المجحف غير الأمين، وهم يعلمون أن هؤلاء القوم الطيبين المسالمين يعيشون وسطهم، ومن المكن جدًا معاشرتهم والإطلاع على حقيقة إيمانهم وتوحيدهم وكتبهم وطقوسهم وشعائرهم وجوهر دينهم التوحيدي، ولربما هذا الباحث كان جده أو جد جده صابئيًا مندائيًا أو جدة جدتهُ، وغيرَّت دينها لظروف قاهرة أو لقناعات، أو بسبب الغزوات والفتوحات، أو هروبًا من الجزية، أو للحصول على مكسب أو منصب... بمعنى أنه من أصول مندائية... والله أعلم.

من الطبيعي أن الباحث وهو يخوض في لُجة هذه الأمواج وهذا التوهان في هذا النفق الطويل الكثير الشعب والممرات والنياسم الوعرة؛ أن يخطأ أو يصيب،

فإن أخطأ فأراه معذورًا، بسبب عدم صدق المصادر ودقة المعلومات... وإن أصاب بسبب المعايشة والتدقيق والتمحيص فلهُ الثواب.

وقد كتبت الكثير وحذفت الكثير، وأَعدتُ كتابة بعض المواضيع عدة مرات... وعدَّلتُ بعضها، وعلقت على بعضها، وعقبت على بعضها، لاختلاف آراء الباحثين والمؤرخين والكُتَّاب على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم، فإنك لتجد فقيهًا يقول إنهم من الموحدين ويفسِّر الآيات القرآنية تفسيرًا منصفًا، وعندما يتبوأ مركزًا دينيًا في الدولة؛ يُغيِّر رأيه ويفسِّر الآيات وفق ما تقتضيه مصالحه أو إرضاءً للآخرين المتزمتين.

المهم، هناك من شجعني أن أبدأ بتدوين هذه الموسوعة، وهناك من حذرني... وفعلاً بدأت بالجزء الأول فأنجزتهُ، ولكن لم أدفعهُ للطباعة... وباشرت بالجزء الثاني فأكملتهُ، وقرَّرتُ البدء في طباعته، والله الساتر... كما أنجزتُ فصولاً كثيرة من الجزء الثالث... ومازلت مستمرًا، مندفعًا تارة ومتوجسًا تارة... وحسبي الله الحي العظيم الذي قدَّرني على هذا... فهذه قدرتي واجتهادي راجيًا المغفرة من رب العالمين... ورضا الناس... متجاوزًا الكثير من المعوقات، متخطيها بالصبر والدراسة والسؤال والإطلاع، أو تركها ثم العودة إليها بعد حين... فإذا أردت أن تحفر نهرًا وصادفك تلٌّ صخريُ يعيق سريان الماء؛ فعليك إما أن تغيِّر المسار كما تفعل الطبيعة، أو تلفَّ حوله، أو تتجاوزه لحين تهيئة المعدات والجهد اللازم فتعود إليه... وأنا أحاول أن أحفر ساقية في أرض هناك من يراها صخرية، وهناك من يراها ترابية، وهناك من يراها بين هذا وذلك... وأنا هكذا رأيتها مرةً سهلة ميسورة ومرةً صعبة معسورة... ولكني توكلت على الحي العظيم ربي ورب الناس وهيأت أدواتي وجمعت ما قدرني الله وإمكاناتي والأصدقاء من مصادر متاحة، وبدأت أبحر في المشوار؛ أو قل بدأت بحفر الساقية بالمعاول المتوفرة... وبتشجيع الأخوة الأصدقاء الطيبين بدأت العمل، وكلما تعبتُ أرتاح قليلاً، وعندما تتزاحم الأفكار في خاطري

أدوِّنها أولاً بأول، حتى لو كنت في عز نومي توقظني؛ فأذهب لمكتبي وأدونها، وشيئًا فشيئًا تجمعت المعلومات، فالبحر مداده من نُقط.

وكنت دائمًا أتذكر حين نحضِّر للدراسات العليا في مجال هندسة الطيران، كنا ستة طلاب مغتربين من جنسيات شتى، وكان مشروعنا المشترك الطائرات المسيرة (Drons)، وفي السبعينات كانت المصادر المتوفرة حول هذا النوع من الطائرات بدون طيار قليلة جدًا، والأساتذة المتخصصون نادرين جدًا... وعملنا نحن الستة كلاً على حدة، أنا استعنت بالمصادر الإنجليزية والروسية، وصديقي الجزائري استعان بالمصادر الإنجليزية والفرنسية، وكان أنانيًا غير متعاون، يبخل بالمصادر والمعلومات. المهم. أنا أنجزت المشروع والرسومات والحسابات، وتهيأت للمناقشة، وكذلك الباقين، وكان أول المناقشين عبد الحميد الجزائري صديقي، وفي مقدمة حديثه قال: إن هناك معوقات عمل كثيرة أهمها عدم توفر المصادر، لذلك فمشروعي غير متكامل بسبب شحة المعلومات، وأحتاج لمزيد من الوقت لأرضى عن هذا المشروع... فقالت له اللجنة، خذ من الوقت ما يكفيك وسنؤجل امتحانك للسنة القادمة... أراد أن يبرر أو يعلِّل، قالوا له: انتهى وقتك... ونادوا اسمي، فتقدمتُ، فسألني رئيس اللجنة: هل أنت حاضر؟... نعم سيدي حاضر... هل كنتَ تعاني من معوقات... قلتُ: كلا... يعني معلوماتك كاملة ومصادرك جيدة... نعم سيدي... وكان في خاطري غير هذا الكلام، ولكني تعلمت الدرس من صديقي الجزائري الضحية، فاسترسلتُ بالنقاش وتفوقتُ وحصلتُ على امتياز؛ وهذا تقدير من الصعب الحصول عليه في علوم الطيران...

لهذا أردتُ أن لا أذكر معوقات العمل، ولكني ليس أمام لجنة امتحان، ومن الضروري أن أكون أمينًا صادقًا فيما أكتب أو أقول، ولأنير الدرب للآخرين لكي يتجاوزوا تلك المعوقات، أو لكي لا ييئسوا إذا صادفتهم.

أرجو الاستفادة من هذه المعلومات وسنعمل على تطويرها في الأجزاء اللاحقة، ومن الضروري جدًا الإطلاع على الجزء الأول ليتكامل العمل والمعلومات وتكون الفائدة أكبر وأوسع.

- **أهم معوقات البحث عن الصابئة المندائيين :**

يلاقي الباحث في الدراسات المندائية معوقات شتى ، تؤثر في عمق البحث ودقته والتوسع بالمعلومات أهمها :

١- تكتم رجال الدين على المعلومات، وعدم البوح بها وبتفاصيلها، وخاصةً إذا كان الباحث من ديانة أخرى ؛ رغم الانفتاح المحدود حاليًا ، فوجدتها فرصة مواتية باعتباري واحد منهم ، وأعرفهم حق المعرفة ، وقد عملت معهم سنين طويلة ، وكنتُ رئيسًا لمجلس شؤونهم ، ورئيسًا للجنة العليا للترجمة ، ورئيسًا للجمعية المندائية في أسكلستونا (السويد)، وسكرتير مجلس العموم في السويد ، وعلاقاتي طيبة مع الجميع وخاصةً رجال الدين والمثقفين... وهذا ما يسر عليَّ أمورًا كثيرة ، وسهّل الحصول على معلومات وفيرة ساعدت في إعداد هذا البحث، وفي إعداد دائرة معلومات جيدة عن الصابئة المندائيين.

٢- معظم الكتب الدينية مدونة باللغة المندائية (لغة آرامية شرقية قديمة) ، أغلبهم لا يجيدها قراءةً وكتابة، وعليك وهذه الحالة أن تستعين برجال الدين ؛ أو قل بعض رجال الدين.

٣- صحيح هناك مستشرقون وأوائل ومعاصرون كتبوا عن الصابئة المندائيين، ولكن هناك اختلافات واجتهادات كثيرة ما أنزل الله بها من سلطان ، أفكار غريبة لا تمت بصلة للمندائية... لهذا تحتاج إلى وقت طويل لتميز بين الصحيح والضعيف، وجميعهم أخذ بعضهم من بعض دون أن يميزوا الخطأ من الصواب إلا ما ندر... وهذه مشكلة عويصة تواجه الباحث.

٤- دائمًا الحضارات القديمة والأديان القديمة تُعلق بها كثير من الأفكار والآراء والاجتهادات والإضافات من مؤرخين حاقدين أو متطرفين أو لمرضٍ في نفوسهم... والصابئة المندائيون عبر التاريخ كانت لهم مشاكل عديدة مع الديانات الأخرى باعتبارهم دين قديم وغير تبشيري ورجال دينهم كتومين حتى على أتباع هذا الدين، مثلهم مثل نخلة عمرها موغل في الزمن لم تشذب أو لم تسعف ولم تلقَّح، ورغم أنها نخلة مباركة لأن فيها وجه الله لأنك من أي جهة تنظر لها لا يتغير المنظر... ولهذا على الباحث أن يبذل جهودًا مضنية ليرى هذه النخلة على حقيقتها، وقد حاولتُ جاهدًا أن أراها على حقيقتها بالاجتهاد والإطلاع والمشاورة والنقاش والاحتكاك برجال الدين ووجهاء الطائفة المتقدمين بالسن والمثقفين، وكل المصادر المتيسرة تقريبًا.

٥- من حسن الحظ أني واحد منهم ترعرعت وتربيت في أحضانهم وفي قلب مجتمعهم واطلعت على عاداتهم وحقيقتهم، فهم أهلي وهم عشيرتي، تعلمت منهم أمورًا كثيرة على مدى أكثر من ستين سنة، لذا فإني أحسُّ بأحاسيسهم وأفهم كل ما يقولون وبما يفكرون، وأفهم الطقوس والشعائر الدينية وأحس بها، كذلك إشرافي على ترجمة الكتاب المقدس كنزا ربا (الكنز العظيم) و دراشة أد يهيا (تعاليم النبي يحيى) أضافت لي الشيء الكثير من الفهم والمعلومات بحيث أرى نفسي في كثير من الأحيان عند المناقشات مصدرًا مهمًا من المصادر، ولقد أغنيت ذلك بالمطالعة والمتابعة والبحث والتقصي. مما ذلَّل كثيرًا من المعوقات وسهَّل أمور هذا البحث، بحيث أن الذي يطلع عليه سيكّون فكرة ممتازة عن الصابئة المندائيين لأنه بحث شامل يحتوي على معلومات مفيدة.

٦- هناك مصطلحات ومسميات مندائية من الصعوبة أن تجد ما يقابلها باللغة العربية، فارتأيت أن أكتبها كما هي، وتلك حالة اضطرارية الغاية منها المحافظة على الكلمة وما تعنيه، مثل نشماثا، يردنا، وناصروثا، وغيرها.

٧- هناك بعض الشعائر والعادات والتقاليد الموروثة جيل عن جيل، حاليًا يريد المثقفون والشباب؛ وخاصةً في المهجر؛ تطويرها أو تطوير قسم منها... ولأن كثير من المندائيين البسطاء يعتبرونها شيئًا مهمًا من الدين لأنهم غير مطلعين على التاريخ المندائي ولا على الفكر المندائي لأنه أساسًا لا يوجد تاريخ مكتوب ولحد الآن الفلسفة المندائية لا يفهمها إلا بعض رجال الدين وعدد قليل جدًا من المثقفين، فإلى الآن لم يجرؤ أحد على تفسير (الكنزا ربا) رغم أنه تُرجم إلى اللغة العربية منذ عام ٢٠٠٠ ميلادي.

٨- الباحث في الدين المندائي؛ وخاصةً إذا كان من الصابئة المندائيين؛ يتوجب عليه أن يكون دقيقًا أمينًا صادقًا، وإلا تعرَّض للنقد، وأحياناً للتهجم عليه من أقرب الناس إليه، ولهذا تلاحظ عزوف المثقفين عن الخوض في هذا المجال.

٩- يعتقد رجال الدين المندائيين أن الفكر المندائي والتراث المندائي حكرٌ لهم، وهم وحدهم لهم الحق بالاجتهاد والتفسير وإعطاء الرأي، لأنهم ناصورئيين وغيرهم سوادية، رغم أن بعض رجال الدين لا يملكون الثقافة التي تؤهلهم لذلك.

١٠- اجتهد كثير من علماء المسلمين الأوائل وقسم من المعاصرين اجتهادات بعيدة كل البُعد عن الحقيقة، وفسَّروا الأمور نقلاً عن غيرهم، دون أن يجتهدوا ويطلعوا على الكتب المندائية أو يقرأوا كتابهم المقدس ويتعمقوا فيه.